فاكه

حب الوطن

172.1:F17hAn:c.1
فاكة، اميل
حب الوطن
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01003113

DATE DUE

JAFET LIB.
13 JAN 2005
Circulation Dept. 4

JAFET LIB.
11 FEB 2005
Circulation Dept. 1

172.1
E17hn
C.1

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARY

وصايا الوطن العشرة

حب الوطن

تأليف

اميل فاكه

احد اعضاء المجمع العلمي الفرنسوي

تعريب

ابراهيم سليم نجار

ثمن النسخة خمسة غروش ذهبية

حقوق الطبع محفوظة للمعرب

69457

مطبعة الادب ❁ ي . ج ❁ بيروت

١٩٢٨

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
LIBRARY

سماحة الاستاذ الاكبر

الشيخ محمد الجسر

رئيس مجلس الشيوخ السابق

ورئيس مجلس النواب الحالي

يبدي رأيه بهذا الكتاب

طبعت هذا الكتاب في شهر تموز سنة ١٩١٢ في فروق طبعة اولى نفدت جميع نسخها فتفضل علي حضرة الاستاذ العلامة الاكبر الشيخ محمد الجسر — وكان يومئذ عضواً في مجلس النواب العثماني — بهذه السطور الاتية . قال حفظه الله واعزه .

حضرة الفاضل

اهديتني نسخةً من تعريبك (وصايا الوطن إلى العشر) فشكرت الهدية ومهديها وقرأت نبذةً منها فاستهوتني بحسن معناها ورشاقة مبناها ؛ ولم اتم النظر فيها حتى وافقت المؤلف اميل فاكه على قوله في مقدمة الفصل الاول « يجب ان يكون الكاتب ولوعاً بالامر الغريب ليكتب في موضوع حب الوطن في سنة ١٩١٠ وليكتب في اللغة الفرنسوية على الخصوص »

اطلق الكاتب لخياله العنان في ميدان وسيع فاجاد في موضوع يتقبله الفرنسوي بقبول حسن لانه من قلم « فاكه » احد اعضاء المجمع العلمي الفرنسوي او لان الفرنساوي ولوع بالغرائب اما الشرقي فانه يقرأ الكتاب

ليستفيد من ابحاث كل فصل على حدة ، اما المجموع فلا يقدر ان يأخذ من تعريف الوطن بما يقدر ان يتعقله .

اشارك الكاتب بتقسيم الوطن الى قسمين عام وخاص ولكني اخالفه واعتبر الخاص هو الدين والعام هو حب الذات وما بقي فهي جوامع تتبدل وتتغير وتطرأ عليها عوامل التكون ؛ اما الاصلان فهما راسخان في النفوس ما بقيت هذه الروح البشرية مرفرفةً فوق ارجاء العالم الحي .

الدين هو الوطن وليس « عاملاً كبيراً من عوامل الوطنية ومن خصائصه ان يكون على عكس ذلك ايضاً » كما قال فاكه ؛ وهل يريني الكاتب قوما رسخت مبادىء الدين الاصلية في نفوسهم فاخرجت منها عوامل الوطن او كانت معولاً يقوض دعائم الوطنية بينهم وبين مخالفيهم في الدين ؟ ام كانت هي الجامعة الوحيدة لكل الجوامع التي سماها الكاتب وطنا . اذا لم يكن شعور الوطن ممتزجاً بالروح والجسد امتزاجاً كيماوياً تشعر به كل نفس حتى نفوس الشعب فانّى هو اذن واين هي فائدته ؟ وهل يتصور ان يكون كذلك اذا لم تكن بزوره من بزور الدين المتعلقة في النفوس البشرية ؟ اذا رسخت بزور الاديان في نفوس البشر تمت لها جامعات كثيرة واستغنت عن الجامعات التي يتضجر الكاتب فاكه من كثرتها ويستصعب التوفيق بينها لتعارضها ؛ اذا نمت بزور الوطن الديني في نفوس البشر استغنى الكاتب فاكه عن تقسيم الوطن الى الصغير والكبير ، ولا يجد سبيلاً حينئذٍ الى مخالفة الانسانية والوطن . فالاديان . — اذا منحت حريتها — اغنت العالم عن الاشتغال بكثير من مباحث الوطنية التي خلقت جدتها

اما حب الذات فهو نعم الوطن لمن خضع لدين او لمن انكره . فاذا احب الانسان نفسه ثبتت فيه حاسات الوطنية فحفظ حقوق السوى وقايةً لحقوق ذاته وازداد في المحافظة عليها كلما ازداد السوى قربا منه وصلةً به وعلاقة فيه فيتم حينئذ نظام الوطنية ويصبح الوطن عاماً .

عفواً ايها الفاضل فقد كتبت اليك لاشكرك على خدمتك لابناء اللغة العربية فكدت اخرج عن الموضوع

قرأت الكتاب بلذة المستفيد ولما اتممته نظرت اليه بعين الاحترام فاشكرك على صنيعك واتمنى لابناء اللغة العربية دوام التوفيق بنقل امثاله الى لغتنا الشريفة وارجو للكتاب نجاحاً يليق به

الاستانة في ١٧ حزيران سنة ١٣٢٨

صديقك

محمد الجسر

صوت من الضريح

ولقد تكرم علي شهيد الوطنية والمروءة والادب فقيد الامة السيد الزهراوي بهذه السطور الاتية التي ازفها لابناء الامة العربية قال فقيد الامة العربية العظيم رحمه الله وبرد ثراه

اللسان على صغر جريه · وبساطة شكله ؛ وما يحيط بـه من الاسوار والمحابس · وما يقيد حريته من الاطوار والبواعث · هو هو مورث النوع الانساني هذه السلطنة العظمى على جميع عوالم الارض ؛ وملبسه تاج التميز على كل ذوات الروح ؛ هو عنوان عناية خاصة اهداها الفاطر سبحانه اليه ؛ وآية تكريم فائق اظهره الباري فيه ؛ هو اول ابواب انتشار العلوم · واول اسباب ارتقاء الفنون ، هو مجرىً ينابيع الافكار ولكن كم استمدت الافكار من هذا المجرى الذاخر ؛ وما الاقلام الا خلائفه في بعض الاحيان

لقد علم كل من اوتوا قليلًا من العلم ان اوائل البشر كانوا على سذاجة في كل شيء فعقلهم كان يومئذ في غاية السذاجة ايضاً · اما العقل الحاضر الذي تدهشنا بعض مظاهره اليوم فهو عقل مستفاد قد افادنا اياه الاجتماع على تمادي الاحقاب وكان اللسان اعظم واسطة لاستفادتنا من هذا العقل

لست ادري كيف يكون شأن هذا العقل المستفاد لو كان البشر كانهم على لسان واحد او غير متفرقين في الالسنة الى هذا الحد لكن اظن ان تفرقهم هذا لم يمنع ارتقاء العقل المستفاد في المجموع البشري لانهم مع هذا التفرق استطاعوا ان يتفاهمو كثيرا بواسطة من يعرفون اكثر من لسان واحد من افرادهم · لذلك يجب على المخلصين للانسانية ان يكثروا من تذكر فضل المترجمين ·

امامنا الان كتاب اخرجه الى لغتنا الكريمة صديقنا ابراهيم افندي النجار . مؤلفه بالافرنسية « اميل فاكه » احد اعضاء المجمع العلمي الفرنسوي عنوانه « وصايا الوطن العشر » موضوعه « فلسفة حب الوطن » وما يدور حولها وهو خلاصة جميلة في بابه

ليس هذا الكتاب هو الذي يذكرنا بخدمة ابراهيم افندي النجار للعربية . كلا . بل خدمة الجلى الكثيرة نصب اعيننا . وانما يذكرنا هذا الكتاب بفضل المترجمين وبهذه المناسبة نعطي ابراهيم افندي حقه من الثناء على هذه الترجمة

وعسى ان نرى الى مستقبل بعيد كثيراً من آثار قلمه انشاء وترجمة فيربح اللغة ويربح من شكر العقلاء المزيد

في ٢٥ رجب ١٣٣٠ و ١٠ تموز سنة ١٩١٢

عبد الحميد الزهراوي

توطئة صغيرة

وضع المسيو اميل فاكه الكاتب الفرنساوي الطائر الصيت فصولاً في الوطنية جمعها في كتيّب صغير رأيت ان اعربها لقراء اللغة العربية لما رأيته فيها من المبادىء الصحيحة والآراء السديدة التي اشتدت حاجة اهل الشرق اليها فقد وعت دفتاه خمسة عشر فصلا في وجوب حب الوطن وعلاقة الدين واللغة والاداب والمعارف به. وصف فيها كاتبها الوطنين الصغير والكبير وسرد اقوال خصوم الوطنية ورد عليها . فعل كل ذلك في صفحات قليلة ضمنها افكاراً كثيرة دعتني على رغم ما عندي من المشاغل الكتابية في الوقت الحاضر لان اقدم على تعريبها . فعسى ان يلقى الكتاب من قراء اللغة العربية اقبالاً كالشغف الذي دعاني الى تعريبه فتتساوى الكفتان وينتصف الفريقان . المعرب والقارىء والسلام .

فروق ١٥ ايار سنة ١٩١٢

« المعرب »

الوصايا العشر

احبب نفسك .
احبب امرأتك .
احبب اباك وامك واولادك .
احبب صديقك .
احبب الشيوخ العجز .
احبب مهنتك .
احبب وطنك .
احبب الحقيقة .
احبب الواجب .
احبب الله .

الوطن

(١)

يجب ان يكون الكاتب ولوعاً بالامر الغريب ليكتب في موضوع حب الوطن في سنة ١٩١٠ وليكتب على الخصوص في اللغة الفرنسوية . فلقد اشتد حب الوطن في كل بلاد عما كان عليه فيها فبلغ شكله الحاد . واريد بذلك انه بلغ دور حب التوسع والاستعمار . ويقضي هذا الدور على المرء بان يحب وطنه كما كان يحبه الروماني . اعني ان يعتقد بانه الوطن الاعلى . وان يضربه على اعناق الجنس البشري . وان يرشد الناس الى الخضوع له . والدخول فيه . وان يرى استعباد الجنس البشري لوطنه ضربا من الانسانية والوطنية . هكذا يتمنى الانكليز ، والاميريكيون ، والروس ، والالمان ، واليابانيون ، والتليان ، واليونان الذين يتوقعون تحقيق امانيهم في ازمان تختلف بعداً وقرباً . فقد تقدمت هذه الفكرة تقدماً عظيما حتى اضطر الاشتراكيون الالمانيون الذين يعلمون ان نجاح الاشتراكية يتوقف على زوال حب الوطن الى القول بانهم وطنيون . وانه ليكفي خصومهم ان يثيروا عليهم فكرة حب الوطن بمساعدة بعض اساتذة المدارس المتحمسين ليفقدوهم نصف عدد نوابهم في المجلس ويرجعوهم عشرين سنة الى الوراء كما جرى في سنة ١٩٠٦ . فقد قال لي احد الساسة الفرنسويين ذات يوم بهذه المناسبة . ماذا تريد ان نقول عنهم ؟ انهم شعب حي .

اما في فرنسا فالفكرة تضعف شيئاً فشيئاً لتدخل في دور الهزء والسخرية فالاساتذة الفرنسويون يقاتلونها بهمة ناهضة بل بشجاعة . واذا دخلت فرنسا

في حوزة دولة اجنبية اللهم ما خلا بلجيكا وسويسرا يفقد هؤلاء الاساتذة متى تحققت معتقداتهم اسباب معيشتهم لانهم لايعرفون حرفة غير التعليم فمعظم اساتذة المدارس الثانوية والعليا هم لا اقول اعداء اوطانهم بل فوق فكرة حب الوطن . فالعمال = على الغالب = لا يكترثون بهذا الفكر . والعوام جامدون . واهل الطبقة العليا مخلطون ففيهم هذا وذاك

ان تغلب هذا الفكر في شعب مغلوب على امره يعتبر امراً طبيعياً اللهم الا ان يكون الشعب الفرنسوي اخذ فكرة كره الوطن لانه غلب على امره فذلك لانه وضع نفسه فوق مسائل الحدود — اي فوق مسالة حب الوطن — وكان لا يريد ان يكون غالبا . لما كان الشعب المغلوب يشبه ثعلبا مقطوع الذنب وكان الشعب الفرنسوي ابياً فهو يود ان يتجاوز هذا الحد وان لا يكون كالطفل يقاد الى حيث يراد منه خوفاً من الهزء به . اضف الى هذا ان الفرنسوي يميل بدافع الزهو الباطل او بعبارة اخرى بدافع احترام نفسه الى كره تقاليده القديمة . فهو لا يجب ان يفعل بلا فكر او منقادا ما فعله اباؤه وجدوده من قبله . ولما كان حب الوطن من التقاليد ايضا كان يسلك في هذا الحب مسلكه في الامور الاخرى . اضف الى هذا الامر ان الفرنسوي اصبح باستعداده الفكري كارها الدين لان الدين شيء عام ومن المواد العادية في الوجود ومن اهم المواد التي يتالف منها حب الوطن فاذا كان المروء وطنياً يتخذون وطنيته وسيلة لاتهامه بالتعصب . واذا كان غير وطني او ضعيف الوطنية يكون كأنه حرر نفسه من الرق الديني . هذه هي الاسباب التي افهمها . والتي مع هذا الفهم احاول شرحها بقدر ما استطيعه كفكرة غريبة في حد ذاتها وكفكرة يرى معظم امم العالم انها سلمية ايضاً .

❁ الوطن المادي ❁

(٢)

ما هو الوطن ؟ هو ارتباط المرء بقطعة ارض ولد فيها ارتباطاً يفوق ارتباطه ببقية قطع العالم الاخرى . فهو حسب المبدأ والفطرة حب المعلوم والخوف من الامر المجهول . هو حب الافق الذي الفت عيناه رؤيته . ومما يؤيد هذا الفكر الانقباض الذي يشعر به المرء حينما يتغير امام عينيه الافق الذي كان يعيش فيه . ولقد كان الرجل الاول لا يرتاح الا الى قريته او اذا كان في جوار قريته . فقد يكون له فيها خصوم ولكن له فيها اصدقاء وحلفاء ايضاً . في حين انه لا يرى في الافق الجديد الذي يعيش فيه غير خصوم له . لذلك ينشرح صدره لرؤية دخان مداخن بلاده التي ولد فيها حينما يعود من سفر او من رحلة . فهذه العواطف تترك في النفس من خلال جميع المدنيات شيئا من الوطنية بل المادة الاولى التي يتالف منها حب الوطن فالوطن الاكبر هو الاطار الذي يحيط بالوطن الصغير فيأخذ من هذا الاخير شيئاً كثيراً من قيمته في عينيه . فاذا عاد المرء من سفر بعيد يفرح بوطنه الاكبر لانهُ يعلم انه الطريق الى الوطن الصغير

لم تولد فكرة حب الوطن في الدماغ ولكن تثيرها الحياة والمصالح المشتركة التي تحرك الذاكرة . فالعيد او اجتماع اهل القرية العمومي على اثر ظفر او في موسم قطاف تخلق فكرة العائلة الكبرى في المرء . وتوسع عنده مبدأ الاخوة . فهؤلاء الاشخاص الذين هم ابعد قرباً اليك من امرأتك واخوتك واولادك هم مثلهم عزيزون عليك . مميزون في نظرك عن الاجنبي الذي تجهله او الذي تخشاه . فتجمعك هذه الرابطة بعائلتك وبهم بجامعة هي ادنى الى قلبك واكثر حباً منك . هذا هو الوطن الاصلي . هذا هو الوطن المادي

الوطن الروحي

(٣)

متى امتزجت التقاليد والذكريات بحب الوطن فهو روحي معنوي . فالمادة الاصلية التي تكوّن الوطن الروحي والوطن المعنوي هي المقبرة. فلقد قال لمارتين ان رفاة الموتى هي التي خلقت فكرة الوطن . فالوطنية هي ارتباط الاحياء بالاموات برابطة الروح . ويدخل في هذه الرابطة الروحية الافتكار بان الاثنين هم من دم واحد . ونشأة واحدة . وافكار واحدة وعواطف واحدة . تنحل وتتجدد . فهم يقولون ان اباءنا فتحوا لنا هذا السبيل . ونشفوا هذه المستنقعات . وغرسوا هذا الغاب . مع انهم لا يعرفون اي ابائهم فعل ذلك . فيزيد هذا الجهل فكرة حب الوطن ارتباطاً لان المرء لا يقدر ان يفرق في هذا العمل بين ذكر ابيه او ذكر والد جاره فتتضامن الذكريات بعضها ببعض برابطة الاحترام والاعتراف بالمعروف . وهذا التضامن هو عين الوطنية .

ومن التذكر بالاباء والجدود يلد في صدر المرء حب الافتكار بالذريات الاتية . فيقول الانسان في نفسه كما انني احب الذي او الذين هيأوا لي هذا المكان . كذلك يجب ان يحب الذي او الذين يخلفونني من سلفهم . واحبهم لمجرد الافتكار بحبهم لي قبل وقوعه . فتلد من هنا رابطة ثانية هي رابطة الجيل الحاضر بالجيل الاتي . وقد قال جوريس بهذا المعنى . انت مرتبط بهذا الوطن بكل من تقدمك وبكل من يجيء بعدك . بالذي اوجد لك الشيء وبمن توجده له . بالماضي وبالمستقبل . بجمود القبر واهتزاز السرير

انتقاد فكرة الوطن

(٤)

ان حب الارض التي ولد فيها المرء والتضامن الذي يشعر به ابناء اليوم نحو الذين تقدموهم ونحو الذين يجيئون بعدهم يكفي وحده لايجاد وطنية كاملة حية ابدية في الصدور . ولقد قال فولتر (١) الذي كان ابعد الناس عن فكرة الوطنية « اود ان يقول لي احد الناس اين كان وطن ابراهيم ؟ » فقبيلة ابرهيم كانت وطنه . وكان اباؤه واخوته ومواطنوه واولاده واحفاده ذلك الوطن ايضاً . ولقد تمسك فولتر بهذا المبدأ فقال . « انا لا اعلم اين هو وطن الاسرائيلي ؟ فهل يرى الاسرائيلي الذي يقطن كويمبر (٢) ان هذه المدينة وطنه ؟ انه لا يجد فيها غير اناس يضطهدونه . ام هل يعتقد ان وطنه هو في القدس ؟ انه سمع بغموض ان اجداده — ايا كانوا — كانوا يقطنون في الازمان البعيدة تلك الارض القاحلة التي تجاورها صحراء رديئة وان الاتراك هم اليوم حكام هذه الارض التي لا يستخرج منها شيئاً . فالقدس ليست وطنه . وليس له وطن . ولا يوجد عنده على وجه الكرة الارضية قطعة ارض يقدر ان يدعي ملكيتها . »

هذا قول فولتر ؛ ولكن من اين جاء القول المأثور عن الاسرائيليين

---

[١] كاتب وفيلسوف فرنسوي شهير ولد سنة ١٦٩٤ مسيحية وتوفي سنة ١٧٨٨

[٢] كويمبر مدينة في البرتوغال يبلغ عدد سكانها ١٨ الف نسمة هي مركز قضاء بيرا

بانهم اكثر امم العالم وطنية وانهم اكثر الناس تعلقا بما كان اسرائيلياً اوبما هو كائن ؟ واكثر العالم تعصباً له وشغفاً بهِ واستمساكاً بجبله ؟ فالوطن هو التقاليد كما تقدم القول والاستمساك بحب التقاليد القديمة هو الوطنية . فلا كوبير ولا القدس ولا غيرهما هو وطن الاسرائيلي . فالاسرائيلي وطنه هو الديانة الاسرائيلية . والامر الذي يظهر جمال الوطنية . ويظهر مقدرتها وقوتها في النفوس هو انهُ لا يجب ان يكون الانسان ذا صلة بقطعة من الارض ليكون وطنياً بل يجب ان يرتبط بعنصر وبعنصر قوي ليكون كذلك . يقول فولتر . « اتحسن كلمة الوطني في فم رجل رومي يجهل اذا كان وجد في العالم رجل يقال له ملتياد او اجيزيلاس (١) ولا يعلم من نفسه الا انه عبد الانكشاري الذي هو عبد الآغا الذي هو عبد الباشا الذي هو عبد الوزير الذي هو عبد البادشاه الذي نسميه نحن في باريس التركي الكبير » ففولتر يسيء الاستعمال . لانه يستشهد على عدم حب الوطن بالشعوب التي كانت اكثر الامم وطنية وعلى ضعف التذكارات الوطنية بالقوم الذين استخرجوا وطنيتهم من تذكاراتهم . فلقد ارادوا ان يكون لهم وطن لانهم يذكرون جيداً انهم احفاد ملتياد واجيزيلاس ولقد بلغوا ما ارادوه

يقول فولتر . « هل يقدر القسس على القول بان لهم وطنا ؟ ان وطنهم في السماء . امر حسن . ولكني لا اعرف لهم وطناً على هذه الارض » هذا القول هو اقل شذوذاً من الذي تقدمه . ولكن من يرى في عمل القسس شروداً عن فكرة الوطن ؟ . ان عملهم لهو دليل قوي يؤيد هذه الفكرة فوطن القس هو الرهبنة التي ينتسب اليها فهو متمسك بها اكثر من الاسرائيلي بالاسرائيلية ومن الرومي بالالياذة . فالوطن هو ميراث الرجال في حياة اجتماعية تقضي بالتذكارات والتقاليد وبالاخلاص لهذه التذكارات والتقاليد

---

[١] ملتياد قائد اثيني انتصر على الفرس في مراثون ٤٩٠ ق . م . واجيزيلاس احد ملوك سبارطة (٣٦٠ - ٣٠٧) ق . م .

فالراهب هو مثال الوطنية . مثال الرجل الذي يعرف كيف يخلق وطنية لنفسه خارج حدود الوطنية المعروفة . وطنية قوية حية . اللهم الا اذا كان فولتر يود ان يخص بكلامه النساك وامثالهم فهؤلاء نادرون في العالم وهذه الندرة تدل على قدر تمسك المرء بوطن حقيقي او اصطناعي . وعلى الجملة بوطن يكون على الغالب مغروسا في الارض التي ولد فيها او حياً بالتذكارات المشتركة وبنظام موروث

﴿ تاريخ الوطن هو الوطن ﴾

(٥)

يتالف حب الوطن — ما خلا الارض والتقاليد — من تاريخ الوطن ايضاً قلت في غير هذا المكان ان تاريخ الوطن هو الوطن فقد يمكن ان يكون المؤرخ غير وطني ولكنه وطني على الرغم من نفسه لانه يؤرخ وطنه ولانه يزرع بزور الوطنية . فقد قال اوبينيه (١) ان رفاة الشهداء هي بزور ثمينة فتذكارات الجدود المحفوظة في كتب التاريخ هي بزور ثمينة لا بد ان تثمر ايضاً . فالرجل الحالي مرتبط بسلفائه بما يسمعه عنهم وبالصور التي يراها لاعمالهم وتذكره بهم . يقولون لي لماذا يكون الامر كذلك ؟ انهم اساءوا في بعض الامور وارتكبوا اغلاطاً وكانت لهم عيوب واقترفوا جرائم او كانوا اسافل . لذلك ما من سبب او داع لترى في الحديث المروي عنهم ميلاً يدفعنا اليهم ويربطنا بالتالي بهم . هنا دافع نفساني لا يخطىء ابداً يمنع الحقيقة التاريخية من ان تضر بالوطنية ويحدث هذه النتيجة التي توصل الى احياء الفكرة الوطنية بدلا من اضعافها واماتتها . تعلم جيداً انك لا تحفظ لوالدك الا الذكر الجميل اللهم الا ان يكون متناهياً بسوء العمل خصوصاً معك فهو ابوك وعاطفة التضامن بينك وبينه ترفع عملياً بينكما كل شيء سيء اننا حينما نطالع التاريخ نقرأ حسنات الجدود وسيئاتهم . ولكننا عند الذكرى لا نذكر الا الشيء المحدود . وننسب الباقي ببساطة اما الى الزمن او الى تأثير الزمن كأن الزمن ليس هو بحد ذاته مجموع صورة الرجال

---

[١] كاتب فرنسوي عاش في زمن هنري الرابع وهو جد مدام ده مانتنون

الذين عاشوا فيهِ . ولكننا اعتدنا ان نفعل ذلك فنحن نلقى على عاتق الصدفة المساوىء التي نعرفها لابائنا ولا نذكر لهم الا الحسنة . لذلك نشعر باحترام ديني نحوهم

في هذا العمل فعل . ورد فعل . اما الاول فهو ان عاطفة التضامن نحو ابائنا تحملنا بالقوة على ان لا نرى في اعمالهم الا الحسنات . واما الثاني فذكر الحسنات لهم يحملنا على التضامن معهم فالتاريخ هو بهذه الواسطة المكتب الكبير الذي يتخرج فيه الوطنيون . فاول واجبات الشعب الذي يغلب شعبا اخر على امره هو ان لا يعلمه تاريخه . وان يحظر على المؤرخين عمل ذلك او يمنعهم عن ارتكاب الضرر او ان يشتريهم باقل مما يقدرون انفسهم بقليل او باكثر مما يساوون بقليل

فالفيلسوف الذى يكره وطنه لا يجب ان يكون مؤرخا وهو يكون على الغالب كذلك فيكره في التاريخ تاريخ الحروب والفظائع ويسأل المؤرخين ان لا يكتبوا غير تاريخ المدنية فيمنع صغار الطلبة من قراءة كل ما هو عسكري . فهو في عمله سطحي جداً . لانه لا يعلم ان تاريخ الانتصارات والفتوحات هو الذي يحيي الوطنية في صدور الطلبة والرجال اكثر من التاريخ نفسه . لا يعلم ان مطالعة سير كبار الرجال هي التي تبعث الوطنية في الصدور ايا كان نوع هؤلاء الرجال . وان هذه النخوة الوطنية تدفع الوطني الى حمل السلاح حينما يشعر بالاعتداء على وطنه او على شرفه او على ذاته . فيجب على الفيلسوف والحالة هذه ان يحظر قراءة التاريخ كله وان لا يترك الا الجغرافية لا بل حتى الحدود . ولا اشك بانه سيجيء يوم نصل فيه الى هذه النقطة وهذا اليوم قريب

فالمؤرخون هم والحالة هذه زراع بزور الوطنيين حتى المتحمسين من هؤلاء .

الدين

(٦)

الدين هو عامل كبير من عوامل الوطنية ، ومن خصائصه ان يكون على عكس ذلك ايضاً ؛ اذا كان الدين ديناً واحداً عاماً يرتبط باصل الشعب ونشأته كان من اقوى العوامل الوطنية حتى انه ليندغم بها فيكون معها عاملا واحداً . وقد كان الروماني يجهل هل يحب رومة ام يحب الديانة الرومانية . فقد كان يحب الاثنين مجموعين معاً في حب واحد ، كان يحب امته الالهية وآلهته الوطنيين ؛ وقد كان الاثنان كذلك . فاختلط الاثنان في نظره حتى ان اسميهما كان واحداً . فقد كان الدين في نظره وطناً وكان الوطن ديناً . لهذا السبب كانت حرية الدين امراً غير معروف في رومة واثينا لان حرية الدين كانت تعتبر خروجاً عن طريق الوطنية ويعتبر هذا الخروج عصياناً ؛ لذلك السبب حكم الاثينيون بالنفي والاعدام على انكساغورس (١) وسقراط (٢) وارسطو (٣) . وكان الرومانيون يضطهدون المسيحيين . فقد كانوا يمزجون الوطن بالدين ويعتبرون الرجل الذي كان يسعى في هدم الدين كالرجل الذي يسعى في هدم الوطنية . فكان سقراط في عصره كميشال ثروت (٤) في زمنه . فالدين عند هذه الشعوب هو وجه الوطنية الظاهر او هو قلبه .

غير ان الدين يضر الوطنية حينما يكون في الوطن اديان متعددة وذلك لان الدين هو ذاته وطن كما تقدم القول ؛ فالوطن الديني يؤذي وقتئذ الوطن السياسي . ويمكن تصوير الحرب الدينية بما يأتي :

[١ - ٢ - ٣] ثلاثتهم من كبار فلاسفة اليونان الاقدمين عاشوا قبل المسيح باربعماية سنة وتركوا مذاهب محفوظة في العلم والفلسفة

[٤] طبيب وفيلسوف اسباني ولد في فيلانيوفا واحرق في جنيفا سنة ١٥٥٣

تتغلب العاطفة الدينية في صدور الوطنيين فيؤثرون وطنهم الديني على وطنهم السياسي ويتناسون هذا الوطن تناسياً كلياً في سبيل ذلك ؛ لذلك لا يصح حسبان الافرنسي الكاثوليكي الذي كان يستنجد بالاسبانيين في القرن السادس عشر او الفرنسوي البروتستاني الذي كان يستنجد بالالمانيين في ذاك العصر رجلا بلا وطن . فهو وطني كالاثيني او كالروماني ولما كان له وطنان فهو مضطر لاختيار احدهما ؛ فالوطني او الرجل الذي كان يغار على امته في القرن السادس عشر كان مضطراً الان يضع وطنه الديني في المرتبة الثانية بعد وطنه السياسي فاكثر الرجال وطنية في ذاك الزمن هو هنري الرابع لانه كان في وسعه في بذل قليل من الجهد ان يجعل فرنسا كلها بروتستانية الا انه راى ان عليه فرضاً اعظم من ذلك الفرض الديني وجب عليه القيام به فاتخذ المذهب الكاثوليكي لانه مذهب الفريق الاعظم من ابناء الامة الفرنسوية ؛ ولربما كان طامعاً او ضعيف المعتقد غير ان عمله دل على وطنية عظيمة

اعجب كثيراً كيف ان المسيحيين الذين كان يتهمهم موظفو الامبراطورية الرومانية بالفساد لم يكونوا كذلك تماماً ، فقد كانوا مفسدين غير ان فسادهم كان قليلا . فقد ابوا ان يرفضوا الخدمة العسكرية التي كانت لا تنطبق على تعاليم سيدهم . وهذا المثل غريب بل وحيد في ذاته في نظر الوطنين الديني والاجتماعي اللذين كان المسيحي يحبهما ويخدمهما معاً . وسبب ذلك بلا شك هو شدة تأثير نفوذ المدنية الرومانية فيهم . فما من قوة علمانية في ذلك الزمن كانوا يستطيعون الاتكال عليها . واعجب ايضاً كيف انه لم يحدث بينهم افتراق او انشقاق وكيف انه لم يظهر فيهم امثال سيرتوريوس Sertorius (١) وسبرتاكوس Spartacus (٢) ولهذا الامر تعليلان

---

[١] سيرتوريوس قائد روماني انتصر على متلوس وبومبه قتله احد ضباطه في اسبانيا

[٢] رئيس الارقاء الثائرين قاوم الحكومة سنتين وذهب اسمه مثلا لمن ينهض لكسر قيود الرق التي تقيده

يجب ان يكون احدهما صحيحاً ؛ الاول اما ان يكون المسيحيون قد فهموا تماماً معنى قول الانجيل (اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله) اعني انهم فهموا كل الحياة الاجتماعية العصرية التى يظهر الانسان وجوده فيها ولا يهب الحكومة من وجوده غير قسم منه ولكنه يعطيها هذا القسم بكل اخلاص ، واما انهم فكروا ان احسن طريقة لكسب الامبراطورية هو ان يظهروا اخلاصهم لها وان يقنعوها به وبان مصلحتها تقضى عليها باعتناق النصرانية لتوحد فيها القوة السياسية الدينية التي تحققت قبلا في الوثنية . لهذا السبب اشك في ما اذا كان المسيحيون نظروا الى الامور بهذا الفكر البعيد . غير ان الحوادث حققت هذا الامر كأنهم نظروا الى الامور كذلك

فلقد كان الدين في كل وقت اما عاملا وطنيا قويا او سبباً قويا من الاسباب التي تهدم الوطنية . وهذا ما يفسر قول رجل حر كمنتسكيو انه يجب على الحكومة ان تقاوم دخول الدين الاجنبي الي البلاد قبل ان يدخل اليها وان تتساهل مع اصحابه بعد دخوله . ومعنى المقاومة ان الروماني كان يعتقد بان وجود دينين في الوطن يضر بالوطنية . ومعنى التساهل هو معرفة الرجل الحر بان مقاومة دين تدعو اصحابه الى هجرتين اما لهجرة الى الخارج او الى الداخل فتجعل الحكومة من هذه القوة الوطنية قوة تقاوم الوطنية

ليس لهذه المسألة اليوم وجهان فعلى كل الحكومات اليوم التي تعددت مذاهبها السياسية واديانها ان تعتقد بما يأتي : ١ً ان المذاهب ليست اليوم عاملا من عوامل الوطنية

٢ً ان في مقاومة هذه المذاهب والاديان اضعاف الوطنية

٣ً ان الوسيلة الوحيدة لجعل كل هذه المذاهب والاديان وطنيةً هي اطلاق حريتها كلها ومساواتها كلها في المعاملة

اللغة

(٧)

اللغة المشتركة من اقوى عوامل الوطنية فلقد حملت قوتها بعض المفكرين على الظن بانها اقوى العوامل كلها . الا ان هنالك دلائل واضحة تثبت ضعف صحة هذا الظن .

يتكلم اهل الولايات المتحدة الاميركية لغات كثيرة او لغات الدول الاوروبية على العموم ومع ذلك فهم اشد شعوب الارض وطنية ؛ بل ربما كانوا اشدها كلها ؛ وذلك لان لهم تاريخاً شريفاً يفتخرون به فهم واشنطونيون (١) قبل كل شيء . وسبب هذا ان لهم منزلة في العالم يعتزون بها . ونظامات وقوانين تشرفهم ؛ وفي روح الوطنية الاميركية المبدأ الاتي : وهو قولهم في انفسهم «نحن نؤلف اعظم جمهورية رآها العالم قديماً وحديثاً» فوحدة اللغة لاتهم قط هؤلاء الاقوام . ويتكلم السويسرانيون ثلاث لغات وهم مع ذلك ذوو وحدة قومية اوجدتها تواريخهم التذكارية وتعلقهم بنظاماتهم السياسية التي اتفق الجميع عليها اتفاقاً تاماً ، ولكن مع كل ما تقدم من القول لا ينكر احد ان اللغة الواحدة المشتركة هي من اقوى العوامل الوطنية

ما من شيء يجعل المرء غريباً بعيداً عنك كعجزك قليلا او كثيراً عن انتفاهم معه . وهذا العجز يحفر هوة عظيمة بينك وبين هذا الغريب . تزوج

---

[١] نسبة الى جورج واشنطون احد محرري الولايات المتحدة الاميركية ولد وتوفي سنة (١٧٩٩ - ١٧٣٢)

فرنسوي باجنبية فقال لي بعد عشرة اعوام من زواجه (لا ارى بيني وبينها حتى اليوم هذا التفاهم الوداي الصافي) وقالت لي ام بعد رجوع ولدها من لندن قولا ارى فيه كثيراً من الغلو والاغراق لذلك لا ارضى عنه وهو (اشعر بان قوة ملكيتي على ولدي قد ضعفت منذ اصبح يتكلم اللغة الانكليزية فانا سوف لا ارسل ولدي الثاني الى لندن) . ان من اكبر الاسباب التي جعلت اللغة رابطاً وطنياً قوياً هو انها تطبع في الذرية الجديدة صورة واخلاق الذرية الماضية فتحفظ للذريات الاتية اخلاقهم ومبادءهم فاللغة هي قالب من الافكار وكل ولد يتعلم كلمة منها يرث فكرا قديماً . ولقد كان الاستبداد يكون اقل مما هو في فرنسا لو لم تكن كلمة (السلطة) في اللغة . فبسبب وجودها فيها لا يمكن ان يقتنع دماغ افرنسي بان لا حاجة لوجود سلطة ما . بل يعسر نزع فكرة وجوب وجود السلطة من ذهنه فهو يقول ان هذه السلطة كانت تتمثل قديماً في الملك وهي تتمثل اليوم في الشعب . فالكلمة توجد الفكرة والفكرة تتضمن ضرورة صيرورة الكلمة شيئاً محسوساً

فاذا كان الامر كذلك فاللغة هي اقوى واوضح رابطة بين احياء امة وامواتها فهي تخلق هذه الرابطة وتوءيدها وتطيلها وتؤبدها . فالاسباب التي دعت الى حياة الامة الايطالية هي انها تتكلم لغة واحدة على الرغم مما كان يقوله احد الساسة وهو ان ايطاليا ليست الا تعبيراً جغرافياً : فلقد كانت اكثر من ذلك . كانت كل البلاد التي تنتهي مخاطبات اهلها بحرف (سي) ومن اكبر الاسباب التي دعت الامة اليونانية الى الوجود هي انها لم تنس ابداً اللغة اليونانية . وكانت لا تنسى هذه اللغة لما يربطها بها من الروابط التذكارية فكان هذا الامر من قبيل الفعل ورد الفعل . وكان تكلم ابنائها بهذه اللغة يحيي ويوءيد هذه التذكارات

اذا ارادت الامة ان تكون ذات صفة خاصة بها فلا بد لها من لغة

خاصة ايضاً . فالالمانيون مثلا يظهرون شدة وطنيتهم في محافظتهم على الحرف المعروف بالكوتيك . واذا شاءت الامة ان تكون انسانية عامة تكون ذات لغة غير محدودة . لهذا ارى ان بعض الفرنسويين الذين يقدمون كلمة الانسانية على الوطنية يميلون الى تسهيل طريقة الاملاء . وارى غلاة الوطنيين يتمسكون بالاحتفاظ في هذه الطريقة الكتابية الغريبة . لذلك استأذن القراء بان اكون في جانب الانسانيين في هذا المبدا فقط

ليست اللغة روح الامة كما قال بعضهم بل هي في تعبير اوفى الشكل الذي يظهر ذكاؤها فيه . كما ان الانشاء ليس في حد ذاته فكرة الكاتب بل الشكل الذي مشت فكرته فيه . وتمتد هذه الفكرة الى بعيد حتى ان الامة المغلوبة على امرها تتغلب بقوة لغتها على المتغلب عليها . فالغالب يتعلم لغة رعاياه العديدين للتفاهم معهم وفي تكلمها تنطبع في ذهنه طريقة افتكارهم وفي انطباع هذه الطريقة في ذهنه يتخلق باخلاقهم

كيف يمكن ان تقاس قوة الشعب ؟ تقاس هكذا ؛ اما انه يحمل المغلوب على تعلم لغته واما ان يضطر الى تعلم لغة الشعب المغلوب على امره فهو في الحالة الاولى فاتح حقيقي اعني انه يحول الشعب المغلوب الى ذاته ؛ وفي الحالة الثانية ليس الا غالب يوم ولكنه في الحقيقة مغلوب اعني محول الى غيره ؛ فالشعوب القوية على الحياة هي التي تتمسك بلغتها وتتمسك لغتها بها فتندغم هي بلغتها وتندغم اللغة بها فهي تعجنهم بعجينها وهم يهذبونها

ان الزمن الذي يسعد فيه الشعب هو الزمن الذي يفتخر فيه بلغته ؛ فيسهر عليها بكل شدة وغيرة لجعلها نقية جميلة ؛ وهذا القول يصح في اثينا ورومة وفرنسا والمانيا وانكلترا واسبانيا ؛ فاللغوي هو في هذه الحالة وطني بل يمكن ان يحسب في عمله اب الوطن . فالذي يخدم اللغة يخدم الوطن نفسه . في القرى لغويون يحرصون على لهجتهم الوطنية الى حد انهم لا يأذنون لمعلم بان يعلم اولادهم اللغة بغير لهجتهم ولهجة اجدادهم . فيفضلون اللهجة القروية

على لهجة المدن فهم يريدون ان يتكلم اولادهم اللهجة القروية جيدا اذا ارادوا التكلم بها . فاللهجة القروية والوطن هما في معتقدهم امران لا يختلفان فلا عجب بعد ذلك اذا امتزج حب الواحد بالاخر .

فاللغة هى التقاليد . هي الثوب . هي القالب بل هى الجسم الذي يتضمن هذه التقاليد فهى تهبها كل حركاتها ونبراتها التي تدخل النفس بسهولة وتجعلها في الشكل الذي تريده

﴿ الفنون ﴾

(٨)

الآداب والفنون هما وطن ايضاً ولما كانت هذه المسألة من الامور المسلم بها فلا اقف عندها طويلاً فهما جزء متمم للوطن لانهما يدخلان في تقاليده وتذكاراته ، غير ان هنالك ملاحظة لا يجب اغفالها وهي ان الوطنية انما هي في الفنون لا في صانعيها ، او ان الفنون هي اعظم من القائمين بها وطنية . عندما يلد المرء وطنياً او حينما يصبح وطنياً في السنة الثانية او الثالثة عشرة من عمره لا يفكر في خدمة وطنه بفنونه ؛ بل يفكر في ان يكون جنديا او موظفاً . اما الشاب المتفنن فلا يفكر بغير ممارسة فنه الذي يصبح شبه وطن له : حتى ان اصحاب الفنون انفسهم يكونون على الغالب ذوي جمود حينما يبلغون درجة المهارة في فنونهم او انهم يكونون في عبارة اخرى اقل تحسسا من غيرهم بفكرة الوطنية ؛ انا لا انسى بلا شك هنري رنو (١) او داوود دانجه (٢) ولكني اقول ان معامل ذوي الفنون ليست على الغالب معاهد للوطنية

وما قلته عن اهل الفنون اقوله عن اهل العلم والادب . يعلم كل انه اذا كان فيكتور هيجو (٣) وطنيا متحمسا فقد كان لمارتين (٤) يصور الوطنية طارة في اسمى صورة وطورا يقول ان الامم كلمة مفخمة ويريد بذلك بربرية وان الانانية والحقد وحدهما وطناً ، وكان يقول (ان كل رجل

[١ - ٢] الاول مصور والثاني حفار قتل الاول في الحرب السبعينيه واشتهر الثاني باثاره الوطنية

(٣ - ٤) فيكتور هيجو ولمارتين شاعران فرنسأويان كبيران

هو من البلاد التي تفهم ذكاءه ومواطن كل انسان مفكر)

بينا الفرد ده موسه (١) ينظم منظومته التى عنوانها الرين الالماني يقول في جهة اخرى (تسألونني ما اذا كنت احب وطني نعم احبه ولكنى احب اسبانيا وتركيا ايضا) وكان هنري هين (٢) ونيتشه (٣) يشعران ببرودة وجفاء نحو وطنهما لان صاحب الفن الكبير او الذي يشعر في نفسه بالرغبة في بلوغ هذه الدرجة يشعر بانه من عالم اوسع من الحدود التي تحيط به يشعر بان له وطنا اسمه المدنية ، فهو لا يستطيع منع نفسه من الافتكار بانه وان كان يدعى لامرتين (٤) فهو اقرب الى كوته(٥) مما هو الى الصانع الفرنسوي القصير النظر الذي يجاوره والذي لا يستطيع ان يفهمه . وكثيرا ما يكون محترماً في غير بلاده اكثر مما هو في بلاده كما كان هنري هين ونيتشه فيجب وقتئذ ان تكون فيه فضيلة غريبة ليقوى على منع نفسه عن الشعور بانفصال قليل عن وطنه

ولكن مهما فكروا ومهما عملوا فهم في اول طبقات الرجال الذين يبدعون الوطنية ويضعونها في صدور الناس ويحفظونها فيها الى زمن طويل فالذرية الجديدة تتشرب من تاليفهم وكتاباتهم واثارهم روح حب الوطن

قلت عن اهل الادب والفنون انهم من الذين يخلقون هذا الوطن وليس هذا القول من باب المجاز ؛ لم يكن يفكر شعراء ايطاليا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر بامكان وجود الدولة الايطالية متحدة . ولكنهم مع ذلك هم الذين خلقوها . فقد كانت ايطاليا دولة في صدورهم ؛ وكان تحقيق هذا الامر يتوقف على مجيء الوقت الذي يشعر فيه الشعب بقوة ذاته السياسية وبانه كائن وله تاريخ واداب وبان العالم يعرفه كذلك فكانت نهضته الادبيه سببا في بعثه السياسي

---

(١) شاعر فرنسوي رقيق الشعر والعواطف عاصر هيجو ولمارتين

(٢-٣) كاتبان شهيران ولد الاول في دوسلدورف والثاني في ريكن في المانيا

(٤) شاعر فرنسوي شهير [٥] شاعر المانى شهير

العلوم

(٩)

ما يقال عن الاداب والمتأدبين وعن الفنون واهلها يقال عن العلوم ؛ فلا تجد عالما يفكر في وطنه وهو مجد وراء اختراع او اكتشاف اللهم الا المخترعون العسكريون ، فالعلماء لايفكرون الا بالعلوم واحيانا بالمجد . تلك فضيلة فيهم لان حب الوطن يستلزم السعي في نفعه اما السعي في سبيل العلم فيجب ان يكون منزها عن كل غاية الا لفضل العلم السامي فقط ، فعلى العالم ان لا يسعى وراء غاية قريبة البلوغ يتوقع منها نفعا بل وراء كل شيء يعتقد انه يحسن به اختراعه او اكتشافه . ولقد وجد العلماء الدرجة قبل ان استعملها البحارون بالف سنة فقد اكتشفها مكتشفوها لذاتها لا لنتيجتها ؛ فالعالم يقول في نفسه (انني اجد الشيء والنتيجة قد تجيء بعد ذلك وقد لا تجيء ابدا فمجيئها وعدمه سيان لان المعرفة جميلة بذاتها)

فالعالم مهما كان وطنيا والكل يعلم كم كان باستور (١) وطنيا لا يفكر في وطنه او يفكر فيه قليلا كعالم

الا انه في لقاء ذلك يبدع حب الوطن كما يبدعه اللغوي والكاتب والمتفنن . فالافرنسى يفتكر حينما يقول انه افرنسي بانه مواطن برتلو (٢) وباستور كما انه مواطن فيكتور هيجو و كورنيل (٣) وربما افتكر بالاثنين

---

١ عالم كيماوي فرنسوي عرف باختراعاته الطبية ضد الامراض التى تنتقل بالعدوى

٢ عالم كيماوي فرنسوي ايضاً مارس السياسة قليلا

٣ شاعر روائي مشهور عاصر راسين وموليار

الاولين اكثر من افتكاره بالاثنين الاخيرين . حسب الحالة . لان العلوم وان كانت لا ترمي الى نتائج عملية فهي تبلغها باهون سبيل . فظهور اختراع عظيم يهيج العواطف الوطنية في الصدور اكثر مما يهيجها ظهور كتاب ادبي ، فقد طلبت جريدة صغيرة الى قرائها ان يرسلوا اليها اسماء عشرة اشخاص يعتقدون انهم كانوا اعظم الفرنسويين في القرن التاسع عشر فورد اسم باستور في صدر هذه القوائم ثم جاء اسم شاتو بريان (١) بعده على مسافة بعيدة في الدرجة الثانية . فالعلماء في امة هم من اشد عوامل الوطنية فيها

ان تأثير اهل الفنون والعلماء هذا التأثير العظيم في عمل لم يفكروا في ان يؤثروا به هو امر غريب في باب ارتباط الشعب بخاصته ؛ فالعلماء — الاماندر — لا يشعرون بالشعب اما هذا الشعب فيشعر بوجوده الذاتي بفضل العلماء وذلك لان العالم يعتقد خطأ انه ليس من اصل الشعب وانه يعيش بذاته لذاته ؛ اما الشعب وان كان لا يستوضح في ذهنه نظام الامة الطبيعي وكونها طبقات بعضها فوق بعض يشعر بذلك فهو لا يعرف ابداً معنى الاثر المأثور « ان النوع الانساني يعيش لافراد فيه » ولا ما يخالف هذا القول وهو « ان النوع الانساني يعيش بافراد فيه » وان القول الثاني اصدق واصح ؛ هو لا يعرف ان العلماء انتزعوا الانسانية من مخالب الاسود وانهم علموها اكل الخبز وارتداء الملبس وتنظيم الجيوش . وان الفلاسفة والكهنة وغيرهم وضعوا لها قواعد الحياة الصحيحة العادلة وان اهل الفنون هم الذين وقوها افة الضجر التي هي من اكبر افاتها ؛ وان هذا النظام هو نظام الكون التدريجي الابدي وان الانسانية اذا شاءت ان تهرب منه تتفانى فيه ؛ هو لا يعرف كل ذلك

---

[١] كاتب فرنسوي شهير خلف عدة اثار قلمية عظيمة الشأن منها رواية اخر بني سراج

ولكنه يشعر به بشكل غير واضح فهو يحترم القوة التى كأنه طبع بطابعها فيميل بطبيعته الى العلماء الذين يحسنون الى الانسانية ويتعشق منهم بشكل خاص الذين يعيشون معه ضمن وطن واحد فيحملون اسما كاسم افراده ويتكلمون لغةً كلغتهم ولهم ما لهؤلاء من المادة والعواطف

وهذه الصلة قوية جدا في النفس فقد وقف كوته (١) ببيعة ستراسبورج (٢) وقال عن رسومها ونقوشها انها ليست من النوع المعروف بالكوتيك فهي لا تفيدني شيئا ؛ فقد كان يتطلب نقشاً المانياً وان يسمى هذا النقش باسمه الحقيقى . فقد وجد كوته في اثر فني عاملا وطنيا عملا بحاسته الوطنية . والشعب يشعر كذلك فهو يرى نفسه مرتبطا بوطنه بالاثار الجميلة التي خلفها له الاباء والجدود بعدهم

---

[١] شاعر المانى شهير

[٢] مدينة شهيرة من مدن الرين السفلى شهيرة بكاتدرائيتها

غاية اللاوطنية

(١٠)

هذه هي كل العوامل التي يتألف منها حب الوطن على ما يظهر لي . اما اما اللاوطنية فتقتضي اما بالذات او بالواسطة استئصال فكرة الوطن ومحو المعارف والآداب والفنون واللغة الخاصة التي يتكلمها الشعب ودينه اذا لم يكن له غير دين واحد وتاريخه وموءرخيه وآثاره وعلى الجملة محو ذكره على قدر ما يستطاع فلا يبقى غير الارض التي لا يستطاع محوها والتي يصبح خطرها ضعيفاً لانها لا تحدث في النفس غير شعور خفيف كتذكر جرس الكنيسة او الوطن الصغير

ان غاية اللاوطنية عسيرة فيكفي المروء ان يقوم بجزء من عملها لينتج حمله اثراً؛

اذا استطاع المروء مثلا اقناع الشعب بان التفوق العقلي ينافي مبادىء الدمقراطية او انهُ يضر بها ؛ او ان الدين خدعة وشيء صبياني ؛ او انه لا يجب على الوطني ان يتعلم من تاريخ بلاده الا تاريخ الخمسين او الستين سنة الاخيرة لان رجال الزمن الماضي كانوا رجالا قتلهم التعصب الديني وجعلهم حب الملكية بلهاء . او ان فنونهم وآدابهم مستعارة لا صفة خاصة لها وليس فيها قوة ولا حياة . او انهم كانوا رجالا سافلين في اسفل درجات سلم

الحيوانية يجب الخجل منهم بدلا من الافتخار بهم ؛ وانهم غرباء عنا فلا يجب علينا ان نفتكر بهم . اذا استطاع المرء اقناع الشعب بشيء من هذا يصبح التغلب على هذا الشعب من اسهل الامور فيتغلب عليه شعب منزه عن هذه العواطف او تكون له عواطف اخرى اقل من العواطف التي تقدم ذكرها تقدما في طريق الترقي

وطني بالرغم عنه

(١١)

يجب علينا ان نعلم انهذه الوطنية التي هي عبارة عن الذكريات والتقاليد والرغبة في ايراث هذه التقاليد لمن يخلفنا هي التي تحملنا على محبة الوطن حتى في الزمن الذي لا نحبه فيه الامر الذي هو في نظر الفكرة الوطنية واجب مهم لا غنى عنه ؛ اعرف افرنسيا يفتكر او يشعر او يفتكر ويشعر معاً بما يأتي : « انا لا احب فرنسا ، كيف اقدر ان احبها ؟ فهي ترفض جميع افكاري وتحتقر جميع عواطفي وتهين كل معتقداتي التى احفظها في صدري احاول ان ارتفع بقوة ذكائي وعملي وطباعي فوق مستواها العقلي فتحتقرني تحتقرني لانها تكره كل تفوق او كل من يرتفع عن الدرجة المتوسطة ؛ فكيف اقدر ان احبها وهي لا تحبني ، ولا تحب نفسها الي . ولا تحب ان تجعل نفسها كما يجب ان تكون فالوطنية نحو بلاد غير وطنية وحب بلاد لا تشعر ذاتها بانها وطن ولا تود ان تكون وطناً هو ضرب من الحمق .

ومع ذلك فانا احبها . اشعر بتعلق شديد بها ؛ وبانقباض في الصدر اذا اجبرت على ان اكون انكليزيا او المانيا او حينما اختار الجنسية الاميركية بمطلق الارادة . فلم هذا الشعور ؟ ذلك لانه يوجد وطن فرنسوي قديم احمل اسمه وافتخر به واتكلم لغته وامشي على ارضه . واذا كان يسيئني

ان اكون مواطن زيد من الناس فانه ليسرني ان اكون مواطن ده كرت (١) وكورنيل وباسكال (٢) ومونتيسكيو (٣)

لذلك اشعر بانني وطني على الرغم مني .

هذا ما قد يقوله بعضهم وما اجيب عليه بان هذه الاحقاد المزعومة ليست ولا يمكن ان تكون الا نوعا من غضب الحبيب

---

١ فيلسوف ورياضي فرنسوي
٢ رياضي فرنسوي شهير
٣ فيلسوف فرنسوي شهير صاحب كتاب فلسفة الشرائع

الوطن الكبير والوطن الصغير

(١٢)

كثيراً ما يتساءلون عما اذا كان حب المرء وطنه الصغير متى كان ينتسب لامة كبيرة لا يضعف تعلقه بوطنه الكبير . او عما اذا كان الامر على غير ذلك ، اي عما اذا كان لا يوجد حب احدهما حب الاخر . فالحقيقة على ما ارى هي انه اذا كان الوطن الكبير يحترم بحب وتقى عادات الولاية الخاصة وتقاليد اهلها وطباعهم الخصوصية فلا يرى ابن الولاية في عمل الوطن الكبير غير دافع يدفعه لحب وطنه الكبير . وكل مكان ينبت الحب موطن فيكون ابن الولاية محقا في حب وطنه الكبير وافتخاره في انتسابه اليه . اللهم الا ان يصد تيار اخر عواطفه فيشعر بشيء من الحقد نحو الوطن الكبير الذي يحتقر وطنه الصغير . فيقف حبه لوطنه الصغير حاجزاً في وجه حب وطنه الكبير الذي يجب عليه ان يحمي بانعطاف وحنو الوطن الصغير

كان الرومانيون الذين يصح ان نعتبرهم اساتذة في فن الفتوحات يعتبرون الشعوب الداخلة في حوزتهم ابناء لهم في التربية حتى اذا استتب لهم نصف الامر في البلاد المفتوحة اعطوا الشعوب التي كانت لا تزال الى عهد قريب عدوة لهم والتي تكون لا تزال نصف ثائرة عليهم حق الوطنية . ولقد نجحت معهم هذه السياسة نجاحا حسنا

فالامر الذي لم ينجح معهم على ما اظن هو رغبة بعض الشعوب في تغيير عادات اهل الولايات البعيدة . فالشعب الذي يسلك هذا المسلك لا

يشعر بضرر ما دام قويا . ما دام قادرا . ما دام غالبا . ولكن اذا تغيرت الحالة يشعر بان حب الناس له اقل مما كان يظن . وان عملية الادغام لم تنجح معه نجاحا كاملا . اما اذا كان الامر على عكس ذلك فتكون الولاية امنع حصن في وجه العدو كما كانت البلاد (الغالية) في الدولة الرومانية

كان يقول فولتر — وارى قوله غريباً — « ان الوطن هو عبارة عن مجموعة عائلات . فكما يساعد الانسان عائلته بدافع الغيرة الذاتية حينما لا يمنعه مانع من ذلك كذلك يساعد بقوة هذا الدافع مدينته او قريته التي يسميها وطنا . ولكن كلما زاد هذا الوطن اتساعا كلما ضعف حبه له . لانه يصعب على المرء ان يحب حباً واحداً اعضاء عائلة كبيرة يكاد يجهل افرادها » . ومع ذلك كيف نفسر شدة تعلق ابناء الاوطان الكبيرة باوطانهم مثل الامبراطورية الرومانية وبريطانيا العظمى والولايات المتحدة والمانيا ؟ وهذا التعلق حقيقة لا مرد عليها ؟ فسببه ان حب الوطن هو نوع من انواع الذهو والفخر فكما ان الانسان يفتخر بمدينته التي راى فيها النور يفتخر اكثر من ذلك بوطن كبير محترم رفيع الشأن ينتسب اليه

يرتبط الوطن الصغير بالوطن الكبير بروابط جمة

يحسد القروي احياناً حسدا شديداً الوطن الكبير الذي يزيد الوطن الصغير صغرا على صغره بجمعه كل قوى الامة في مركز دائرته . او يشكر احيانا الوطن الكبير على خدمه التي يبذلها نحوه بفضل قوته . وعلى قدر قوة حب المرء وطنه الصغير يكون على الغالب حبه الوطن الكبير لان الوطنية تتعدى من الانسان لغيره تعديا اوسع شكلا مما يعتقده فولتر

نعم ان في الوطنية انانية لانها صادرة عن حب الذات : ولكنها تتضمن عاطفة تدعونا الى محبة كل من يشبهنا . كل من يقرب منا شكلا . كل من يرتبط معنا بروابط صداقة نعرفها . كل من يخدمنا بعمل وكل من تقدر على خدمته . وعلى الجملة كل من يشترك في مجتمعنا . فنحن نشعر نحو

هذا المجتمع الكبير بمثل هذه العاطفة التي نشعر بها نحو الوطن الصغير على شرط ان لا يكون هذا المجتمع كام رديئة شرسة

يجب ان تكون هذه العاطفة الوطنية قوية في النفس لتنتشر في مدينة او في ولاية . لتمثل وتشع . فاذا كانت قادرة على الامتداد والانتشار تكون بالطبع قادرة على ان تضم بجناحيها امة محسنة عظيمة . فالذي لا يشعر بعاطفة نحو وطنه الكبير لايشعر على الغالب بعاطفة نحو وطنه الصغير ويكون كاحد هؤلاء الرجال الذين لا يفتكرون بغير انفسهم ؛ فالمسيو باره س (١) مثلا هو من المولعين بوطنهم الصغير المتعصبين له ولكنه في ذات الوقت من اكبر الوطنيين

فحب الوطن الصغير لا يؤذي على الغالب حب الوطن الكبير بل يزيده قوة . فاللوراني (٢) الذي ذكرت اسمه يود ان تخلص مقاطعة اللورين الحب لفرنسا وان تخلص فرنسالها الحب .

من اكبر الاسباب التي تجعل الوطن الكبير محبوباً من الجميع هو ان يكون مخلصا للجميع على السواء . محسنا اليهم . ومن اكبر الاسباب التي تدل على اخلاصه واحسانه اليهم هو ان يدعوهم الى الاشتراك بالحكم

صدق فولتر بين مغالطاته الكثيرة في عشرة سطور قالها . وهي (ما هو الوطن ؟ ألا يشبه حقلا يقول الرجل الذي يسكنه براحة ويغرسه ويستغله ان هذا المنزل الذي بنيته وهذا الحقل الذي احرثه هما لي ؛ هما ملكي وافنى اعيش في حماية قوانين لا يقدر اعظم ظالم في العالم ان يضيقها علي . وانه متى اجتمع اصحاب الارض والمنازل الذين هم مثلي للدفاع عن مصلحتهم المشتركة اكون احدهم وتكون لي كلمة بينهم فانا جزء من المجموع . قسم من السيادة العامة . فاقول وقتئذ هذا وطني) لقد احسن فولتر واجاد فكيف رأى هذه

---

[١] كاتب فرنسوي كبير كان عضوا في المجمع العلمي

[٢] يريد به المسيو باره س واللوراني نسبة الى مقاطعة اللورين

الحقيقة ثم انكر في طول مقالتهِ وعرضها وجود فكرة الوطن ؟ او انهُ اعتبرها دعوى فارغة وعاطفة مصطنعة ؟ معنى فكرة الوطن هو تبادل المنفعة المشتركة فالوطنية كمستودع وكمعمل للمدنية التي تنطبق على عاداتي وتخدمني خدماً جليلة . وانا كوطني نافع اخدمها بقدر ما استطيع ، فهي تسهر على راحتي وانا اسهر على راحتها ، واشترك باصواتي ونصائحي بادارتها وانتظام امورها فهي عائلة موءلفة انا احد افرادها فلماذا احبها طالما هي صغيرة ولا احبها اذا كبرت ؟ اني لا افهم الحكمة في ذلك ؛

اعتراضات

(١٣)

يعترضون على فكرة الوطنية بما يأتي : يقولون ان اكبر برهان على ان هذه الفكرة لا تقوم على اساس مكين هو ان الوطن يتغير بتغير الفتوحات الى درجة تضطرك الى اعتقاد بان واجبك يقضي عليك اليوم بكره البلاد التي كنت تعتقد بان واجبك يقضي عليك قبلا بحبها . انت بره توني (١) مثلا فواجبك الوطني يقضي عليك بحب مقاطعة بره تانيا وكره فرنسا . فتكتسح فرنسا مقاطعة بره تانيه وتلحقها وتدغمها بها فيقضي عليك واجبك الوطني الان بان تحب فرنسا . فالعاطفة التي تتغير بتغير الهدف كهذه العاطفة هي مصطنعة . لذلك يقول المروء المفكر : اذن اين الوطن ؟ حملت السلاح سنة ١٨٦٦ بصفتي بافاري (٢) للدفاع عن بافاريا ضد بروسيا فيجب علي ان احب الاولى واكره الثانية . واليوم يقضي علي واجبي الوطني ان احب بروسيا ضد بافاريا ؛ نعم يقضي بان احبها ضد بافاريا اذا ثارت بافاريا مثلا ويقضي علي في هذا الامر بسلطة وقوة اذن اين هو الواجب ؟ واين هي الوطنية ؟ واين هو الوطن ؟

يظهر لاول وهلة ان الحجة قوية ؛ ولكنها سطحية . لم يقل احد في العالم بان الوطنية ابدية لا تتغير بتغير الاحوال ، فالقول الذى قلناه في الوطن

---

[١] نسبة الى مقاطعة بره تانيه الفرنسوية شمالي فرنسا

[٢] مملكة بافاريا هي احدى الاقطاعات الاربع التي تتألف منها اليوم الجمهورية الالمانية

الكبير والوطن الصغير ينفعنا في هذا الموضوع . ان الوطن الذي يجب على المرء ان يحبه دائما هو الوطن الصغير ، هذا هو الامر المطلق الثابت في الواجب الوطني وفي العاطفة الوطنية وفي الفكرة الوطنية . غير انهذا الوطن الصغير مبتلع في وطن اكبر منه ؛ فما يجب عليك ان تعمله ؟ يجب عليك ان تقاتل لخدمة وطنك الصغير طالما لا يزال هذا الابتلاع غير نهائي . ولكن اذا اصبح هذا الابتلاع نهائياً يجب ان تحب وطنك الصغير في الوطن الكبير وان تخدم الوطن الكبير باخلاص حباً بوطنك الصغير

= ولكني لا اقدر ان احبه

— لا . انك لا تقدر على ذلك . غير ان اولادك واحفادك الذين لم يروا وطنهم الصغير الا داخل وطنهم الكبير يقدرون عليه ، فما الذي جرى في الوطنية ؟ فقد غيرت الوطنية طريقها ومسلكها وطريقة عملها ؟ ولكنها لم تغير شكلها ابداً ؛ فحب الوطن الصغير لا يزال كما كان هذا هو جوهر الحقيقة الذي لا تؤثر فيه خطيئات التاريخ

يجب علينا لنفصل هذه المسألة ان نقول ان هذا الواجب الوطني المتغير في مسلكه الثابت في جوهره قد يفرض احيانا على المرء واجبات مختلفة ؛ اذا كنت مغلوبا على امرك استخدموك دائماً كعبد . فلا يهبونك حق الوطنية ولا يدعونك الى الاشتراك مجاكمية وطنك الجديد . فهل يجب عليك والحالة هذه ان تكون مقاومتك ابدية . لانه لا يمكنك عمليا ان تحب وطنك الصغير في الوطن الكبير ؟

لا . ان الذي تغلب على امرك لاسباب قد يمكن ان تكون قد دعته اليها الضرورة السياسية التي كان لا مناص له منها يرفعك اليه ويساويك به . عند ذلك تقدر الذرية الثانية او الثالثة ان لم تكن الاولى ان تحب الوطن الجديد الذي اوجده لها التاريخ

وقد يحدث ايضا ان الشعب الذي يغلب شعبا اخر على امره يخدم وطنية هذا الشعب الاخير المغلوب

استولت فرنسا على مقاطعة بريتانيا لتقي نفسها هجوم انكلترا . ولما كان اهل مقاطعة بريتانيا يكرهون انكلترا فقد خدمت فرنسا وطنيتهم بعملها هذا

واستولت بروسيا على بافاريا لتقي نفسها هجوم فرنسا ولتقى بافاريا نفسها ايضا من هجوم فرنسا عليها . لذلك نرى ان الشعب الضعيف يجب ان يندمج في الشعب القوي القادر على حمايته . وقد اتانا التاريخ بامثلة من ذلك

فالحالة تتغير كما تقدم القول ولكن الجوهر ثابت دائما . وهو ان تحب وطنك الصغير . ان تحبه كما تسمح لك الاحوال . ان تحبه في الوطن الكبير الذي الحقه به حينما يسمح لك هذا الوطن ان تفعل ذلك بالحرية السياسية التي يتركها لك . والخلاصة ان تحب وطنك الصغير دائماً لان حبه هو جوهر الوطنية الحقيقية والامور الاخرى تكسب الوطنية لونا مستعاراً

— يقول بعضهم ان فرنسا وطني

— فما الذي يريده بهذا القول ؟ يريد بذلك ان فرنسا تتضمن المكان الذي احبه اكثر من كل شيء في العالم فتحميه وتساعده على الحياة وتشركه بحياتها السامية العالية

ان للذين لا وطن صغير لهم ملاحظة يجب بيانها . اعرف اناسا لا وطن صغير لهم واعرف ذلك جيدا لانني انا منهم . وهؤلاء الناس هم اولاد الموظفين وعمال الحكومة

يتكون الجنين في بيروت ويولد في الشام وينشأ في حلب او غيرها ويسكن الموصل (١) فليس لوطنيته وطن خاص . اللهم الا الذين قضوا صغرهم في مدينة . واظن ان وطن هؤلاء الصغار هو البلاد التي سكنوا

(١) غيرت اسماء الاماكن الفرنسوية تقريباً للمعنى

فيها من السنة الثانية عشرة الى الثامنة عشرة من عمرهم . لان شعور الانسان يتكون في هذا السن الذي تبدأ فيه عواطفه بالانتقال من منزله الى خارجه . فهؤلاء الشبان وطن صغير نوعاً ما . ولد برونه تيار (١) في بوتفين وترعرع في مرسيليا فالوطن الذي يحبه هو هذا الاخير . انا من روش — سور — يون غير ان وطني الصغير هو بواتيه حيث حييت حتى السابعة عشرة من عمري . اما الذين عاشوا رحالين متنقلين فهؤلاء لا وطن لهم غير فرنسا ذاتها . قال لي احد هؤلاء :

« انا فرنسوي اكثر من غيري لانني فرنسوي ليس غير »

انا لا اقتنع بهذا القول . نعم ان ماية سباب تحمل هذا الرجل الذي يكون على الشكل الذي تقدم ذكره على ان يكون وطنياً متحمساً : الا ان فائدته في حاسته الوطنية اقل مما هي عند غيره . لان ليس في دماغه صورة مدينة معينة غرست فيه وغرست هي بالثاني في فرنسا . ففرنسا في نظره مشهد جميل واسع بدلا من ان تكون اطارا لصورة الوطن الصغير الذي يحبهُ لذلك يصح ان تقول عن وطنيته انها كمشهد الصور المتحركة الا انهُ يحدث في هذه الحالات وهو نادر جدا ان يستعيض المرء بالمهنة عن الوطن . فوطن ابن رئيس المحكمة الذي كان كثير التنقل هو القضاء نفسهُ . فقد رسخت هذه الصورة في ذهنهِ في كل مكان كان فيهِ منذ صغره الى ان ترعرع . فحلت عنده نوعاً ما محل الوطن الصغير . وكذلك ابن الموظف الاداري . فلهؤلاء القوم وطن اصطناعي ربطوه بالوطن الكبير الذي هو كأم مرضع تدر لبنها على جميع الموظفين الذين هم ابناؤها

فالوطن الكبير يهب اوطاناً صغيرة الى اولاده الذين لا وطن صغير لهم

---

[١] كاتب ونقاد فرنسوي شهير

اعتراض آخر : الانسانية

(١٤)

يعترضون على حب الوطن ايضاً بالامر الآتي (ان حب الوطن يمنع حب الانسانية) فالهيئة الاجتماعية الانسانية لا توجد في نظر الشخص الذي يحب وطنه .

كثيرا ما كان فولتر يتمسك بالاعتراض الاتى ويحتج به باسم الانسانية فيقول (من المؤسف انه يجب لان يكون المرؤ وطنياً ان يكون عدو جميع الرجال . كان كاتون (١) هذا الوطني الحسن يقول دائما في مجلس الاعيان «هذا هو رأيي ولو خربت قرطجنة» فالوطنيون يودون ان تغنى مدينتهم بالتجارة وان تعتز بالقوة ؛ ولا يمكن ان تربح مدينة الا اذا خسر غيرها ولا ان تنتصر الا اذا تركت اشقياء ، هذه هى الشروط الانسانية التي يتطلبها كل من يحب بلاده . فهو يحب الشر لجيرانه . فالذي يحب لوطنه ان لا يكبر وان لا يصغر هو مواطن جميع ابناء العالم)

ومعنى هذا القول ان فولتر لا يود ان توجد الارادة الراغبة في القوة عند احد من الرجال . اما انا فاقول الحقيقة وهى انني لا اعرف ما تكون حال الرجل بلا ارادة قوية ذاتية وارادة اجتماعية ، انه يصبح عدماً حتى انه يستطيع اي حيوان اعجم كان ان يحل محله على هذه الكرة وانه يستخدمه لاغراضه وحاجاته في اقصر زمن . ولكن لو قبلنا جدلا مبدأ حرمان الرجل

---

[١] سياسي روماني وخطيب شهير عاش من سنة ١٤٢-٢٣٧ ق . م .

ارادة القوة الـذاتية والعمومية نجد انه وجد دائما رجال على سطح هـذه الكرة كانت لهم هذه الارادة القوية وانهم وفقوا بسببها الى اخضاع القوم الاخرين . ولما كان قد وجد رجال على هذا الشكل وجب علينا ان نحكم بسبب ذلك بوجود هوءلاء الرجال في المستقبل . ولما كان وجودهم محتملا فلا بد اذن من وجود امم ومن وجود حدود .

لنفرض ان الانسانية في التاريخ الفلاني مثلا تتعب من المصارعة والمخاصمة فتقف متطلبة الراحة والسكون لضياع الرغبة من صدرها . ولقـد كانت هذه الحالة حالة قسم كبير من الانسانية في عهد الامبراطورية الرومانية منذ القرن الحادي عشر ؛ لو فرضنا ذلـك يكفي ان ينهض جزوء صغـير من الانسانية متطلبا التوسع اما لان الاقليم الذي هو فيه لا يوافقه او لان ارضه اقل خصباً من غيرها فيقتطع له مملكة في اية جهة شاءها بفضل جمود الانسانية وسكونها ؛ فيحيي الامة ويقيم الحدود ؛ وليست الامم على الغالب الا نواة جامدة من الجنس البشري ضمت اليها الاجزاء الرخوة والحقتها بها ؛ فهل يوجد دائما في الانسانية اجزاء رخوة واجزاء جامدة ؟ يغلب على الظن انها تكون كذلك ، فستوجد الامم اذن دائما وسيوجد في العالم اما وطنية واما تسليم او استعباد . هكذا يكون حالها على الغالب

يقول فولتر ان الوطنية هى ان يكون المروء عدو جميع الرجال ، لا ليس الامر كذلك فالوطنية هي ان تعتقد ان جميع الرجال يمكن ان يصبحوا ذات يوم اعداءك . ان جميع الرجال يودون ان يكونوا اقوياء . وهـذا الاعتقاد قائم على الحكمة وعلى الملاحظة :

= يقولون الا يحسن بنا ان نستبدل هذا الشك المتبادل بالثقة المتبادلة

— يحسن بنا ذلك بلا شك ؛ ولكني ما كنت لاعتقد ان حسن الظن يوجد عند فولتر الى درجة الخيال ؛ وان الذين ينخدعون به هم الذين يضامون اما الذين يستفيدون فهم الذين يتظاهرون بوجوده عندهم فقط ؟

ما الذي يجري في بلاد مهذبة ؛ منظمة ، تحميها شرائع عادلة ورجال ينفذونها تنفيذا حسنا ؟ ما الذي يفعله الرجل الشريف ؟ هو لا يسرق ، ولكنه يتوقع ان يُسرق فيحتاط لنفسه بناء على هذا الاعتقاد ، فما الذي تودون ان تفعله امة ازاء امة اخرى في الصلات الدولية التي لا تقيد بنظام او قانون بل بقوة الحذر المسلح ؟ نعم ان الوطنية هي عند بعض الامم ارادة راغبة في القوة حتى انها تكاد تشبه كره جميع الناس ولكنها ليست لدى القسم الاكبر الا رغبة في الاحتفاظ . وحب صيانة النفس من الابتلاع . وهي لا توجد ايضاً عند بعض الامم لذلك لا تحاذر هذه الامم غيرها فهي تستسلم لها استسلاما يؤدي بها الى الضعف والاضمحلال فهي تقبل كل شيء خوفا من عمل اي شيء .

فيكفي في هذا العالم ان يوجد شعب تكون له نفس في حالة الغليان ليمنع السلم العام من الاستتباب . والظاهر ان العالم الانساني لم يخلق لهذه الحلاوة العامة .

— يجب ان نسعى لها

— نعم . ان جميع الافكار الانسانية الجميلة هي اشياء لا يمكن تحقيقها ابدا انما يجب السعي لامكان تحقيقها . يجب ان نسعى . نعم . انما يجب ان نسعى بالوطنية للتقرب منها تقربا حقيقيا . ان الشعب الذي قسم على نفسه يكون على الغالب قليل الاهتمام بعدوه الخارجي الموجود او الذي يحتمل وجوده

اما الشعب الساهر على صيانة نفسه فهو ينسى اختلافاته الداخلية . فاذا كان الامر كذلك فالشعب الوطني يؤلف امة وان كان صغيرا فلا يفكر احد في مهاجمته ويستتب السلم العام بفضل هذه الوطنية . نعم ان هذا السلم العام لا يكون ابديا . ولكن على طول الزمن تعتاده الانسانية . فهي ان لم تعش في السلم الدائم تعش في ما يقرب منه

والشعب المنقسم على نفسه والضعيف بسبب هذا الانقسام يقلق السلم العام فانه يغري الاخرين دائما بمنازعته ومخاصمته والهجوم عليه فايتاليا المنقسمة والمانيا المنقسمة وبولونيا المنقسمة كانت سببا في منازعات الامم الاوربية مدة اجيال عديدة بسبب ضعفها واغراء الاقوياء بها . فالوطنية تحمي الوطن دون ان يراد منها ذلك

يقول المثل الاميركي « ان الرجل الذي يتكلم قليلا ويحمل عصا في يده يقولون عنه انه ذو انانية » قد يمكن ان يكون الرجل كذلك ولكنه عامل خير في الانسانية . فهو يقول للاخرين (لا يجرأ احد على مهاجمتي فانا بفضل هذه القوة التي لي احفظ الامن لذلك ارى ان المجتمع مدين لي به)

يقولون ايضا ان الوطنية تهيء اسباب الحرب وذلك لافتكار الامم بها ولسعيها نحوها . فالحرب هي اعظم افات الانسانية فكما ان الاديان هي سبب في الحروب المدنية كذلك الوطنية سبب في الحروب الدولية . هذان هما اعظم اسباب بلاء الانسانية التي تجب ازالتها

يقسم الذين يدافعون عن الحرب الى قسمين على ما يظهر لي . اناس يرضون عن الحرب لاجل الوطنية . واناس يريدون الوطنية لاجل الحرب . اولئك يحافظون على الحرب لان الوطن يحتاج الى قوة . وهؤلاء يجدون الوطنية لبقاء الحرب لانها شيء حسن . يرى الاولون في الحرب ضرورة من ضرورات الوجود ولكنهم ياسفون لوجودها . ويرى الثانون فيها عاملا من العوامل التي تحفظ فضائل الرجال

يقول اولئك (كن وطنيا لكل الاسباب التي تعرف واستسلم للحرب برجولية دون ان تحبها مثل مارك اوريل (١) حينما تتطلبها مصلحة الوطن)

---

[١] امبراطور رومانى حكم من سنة ١٦٠ الى سنة ١٨٠ كان اتقى الامبراطورين واكثرهم استسلاماً لما يجيء به القدر بشجاعة وثبات وعزم

ويقول هؤلاء « ان وجود الاوطان سعادة لانه يؤدي الى الحرب ضرورةً من حين الى حين . فالحرب هي اذن مفيدة بذاتها لانها تظهر فضائل الرجال فهي مقدسة »

كتب ماية كاتب في هذا الموضوع فلم يظهره احد في صورته الحقيقية مثل اناطول فرانس (١) الذي صوّره في صحيفة ظهرت فيها عواطفه الارستقراطية بوضوح قال : « ان الفضائل العسكرية هي التي ولدت المدنية كلها . فالصناعة والفنون الراقية كلها ولدت منها . احتمى ذات يوم مقاتلون مسلحون بالرمح والنشاب وراء صخور تحيط بهم نساؤهم واولادهم ومواطنيهم فكان ذلك المكان اول مدينة . وقد خلق هؤلاء المقاتلون الوطن والحكومة معا وحافظوا على الامن العام . وساعدوا على ايجاد الفنون والصنائع اللذين كان يصعب ايجادهما قبلهم . فقد احدثوا شيئا فشيئا جميع العواطف التى يقوم عليها بناء الحكومة اليوم . ففي تحضرهم احدثوا روح النظام والاخلاص والتضحية والطاعة والتآخي بين المواطنين . ماذا اقول . افكر كثيراً في رفع الحروب واجرأ قليلا على تمني زوالها . لانني اخاف اذا زالت ان تزول جميع الفضائل التي اولدتها والتى يقوم عليها اليوم بناؤنا الاجتماعى . اذا رفعت الفضائل العسكرية تسقط الهيئة الاجتماعية ولو قامت هذه الهيئة الاجتماعية على اسس جديدة لاشترت بثمن كبير السلم العام الذي تشتريه الان بثمن الشجاعة والشرف والتضحية في سبيل الوطن »

ان هذه الاقوال التي قالها اناطول فرانس تحمل الان على الافتكار وتتضمن حقائق كثيرة . ولا شك ان الانسانية الجديدة التي يحدثها رفع الحرب تكون احط من الانسانية الحاضرة من عدة وجوه . وكان يقول نيتشه ان اليوم الذي تزول فيه الحروب من العالم يكون يوم حداد عام

ومع ذلك اقول انه اذا زالت الحروب يبقى دائما شيء منها يمنع

---

[١] كاتب فرنسوي اجتماعي له كتابات مشهورة

الانسانية من ان تتسفل الى الدرجة التي يحاذرها اناطرل فرانس وبرودون . لذلك ارى نفسي في عداد الذين يستسلمون للحرب لاجل الوطنية لا من الذين يتمسكون بالوطنية للنجاة من الحرب . ان الحروب الاهلية هي اخر الاشياء المستقبحة . وكل الحروب هي حروب اهلية . انما يجب ان ننظر الى الحرب بعين الاسف الشجاع حينما توجبها مصلحة الدفاع عن الوطن

ماذا تكسب بالاستسلام للحرب ؟ لندع مسألة الجبن والشجاعة . او مسالة الشرف والعار . ولنساءل النفس عما تكسبه بالاستسلام . انستفيد من الامتناع عن خوض الحروب والمعامع ؟ لا . لاننا نخوضها على الرغم منا فالشعوب التي تخضعنا لسلطتها تغزو شعوبا سوانا كما غزتنا فنضطر لان نحارب هذه الشعوب وقد يوجد بينها شعوب لم تسىء الينا من قبل

ماذا نستفيد من ذلك ؟ انقوم بواجب ؟ فالواجب هو ان تعمل عملا يصح ان تطلقه واجباً عموميا . غير انك واثق من ان هذا الواجب العام يقضي برفع الحرب . فاستسلامك ينقض النظام العام . وهذا النقض يحمل غيرك على نقضه ايضاً .

ماذا تستفيد من تضحية وطنك للانسانية ومن تضحية اخوانك او شرفهم لاخوان اخرين ؟ انت لا تضحي وطنك للانسانية ولكنك تضحيه للفريق الذي يطلب مهاجمتك . فالانسانية منقسمة الى امم وهذه الامم ستظل موجودة بعد اضمحلالك من بينها كما كانت من قبل

ان الحالة الوحيدة التي يمكن ان تضحي فيها نفسك للانسانية هي حينما تجتمع جميع امم العالم فتؤلف امة ولا يبقى غيرك منفردا عندئذ اذا سئلت تضحية نفسك في سبيل المجموع تفيد الانسانية . في القرن الثالث للميلاد خضع بعض الشعوب الشرقية للمملكة الرومانية بلا حرب ولا قتال عملا بهذه الفكرة

وقد علمنا التاريخ ايضاً ان هذه الامم الكبيرة هي معدة ذات يوم للاضمحلال لتقوم على اطلالها امم اخرى جديدة او هي الامم القديمة قامت على اطلال الامم المضمحلة

اذن لماذا نضحي اشرف العواطف في سبيل فكرة خيالية تذهب ذات يوم مع الرياح الاربع . الا يحسن بنا ان نخضع لهذا النظام الاجتماعي الذي يقضي على الانسانية بان تعيش امما وشعوبا تتسالم احيانا وتقتتل احياناً ؟

اترك الفرض جانباً وانظر الى المسألة بعين التدقيق تجد ان الانسانية تخسر بزوال الوطنية لان لكل وطن عادات وتقاليد تزول بزوالها ولا تعود تظهر ابداً

ان الذين يعلمون فكرة قتل حب الوطن في النفوس لا يعرفون ما يريدون ؛ يقولون انهم يخدمون الانسانية أيخدمونها مثلا في زوال فرنسا لتقسيمها بين المانيا وانكلترا وايطاليا ؟ ام يخدمون المدنية ؟ كلا ، لان لكل امة من هذه الامم فضائل اذا زالت بزوالها تخسر الانسانية من جمالها

يستنتج من هذا انه عندما التحقت ساكسونيا وبافاريا بالمانيا والتحقت الاكيتن (١) والبروفنس (٢) بفرنسا خسرت الانسانية

نعم استنتج ذلك تماماً واقول انه يجب على كل شعب ان يمنع وطنه من ان يضمحل لانه باضمحلاله تخسر الانسانية . ففي دفاعه عنه دفاع عن الانسانية . لذلك يجب عليك ان تدافع ما استطعت عن الميزة العقلية الخصوصية التي يختص بها وطنك الصغير . ويجب على كل شعب ان يدافع عن وطنه كما هو الان

ومتى جاء الزمن بالرغم عن كل العوائق والموانع — لو قدرنا انه سيجيء —

---

[١] مقاطعة من مقاطعة غاليا قديماً

[٢] مقاطعة فرنسوية قديمة كانت عاصمتها اكس

وتألفت كل هذه الامم امة واحدة فاما ان تزول هذه المدنية الاصطناعية الادبية وتظل المدنية العلمية وان كانت ضعيفة في ذاتها او تشق شعوب هذا المجموع بقوة المجموع او الافراد طريقاً فتعيد الامم الى ما كانت عليه او توجد امما جديدة

لذلك ترى انه يجب على كل فرد ان يحب وطنه ولو خدمة للانسانية والمدنية اللتين يسألان الناس باسمهما ترك الوطنية

يوجد اناس يضيفون الى وطنيتهم اشياء قد يمكن ان ترفع اقدارهم ولكنها تخيف ويكونون مدفوعين لذكرها اما لغيرتهم على الانسانية او لافكار سياسية . اناس يدعون الناس الى العمل بوطنية موقتة واخرون يشترطون شروطاً في الوطنية

يقول اناس « انه يجب على المرء ان يحب وطنه وان يتمنى في الوقت نفسه مجيء اليوم الذي تتآخى فيه الانسانية فتحرق الاعلام بنار السرور » ومعنى ذلك انه يجب على المرء ان يحب وطنهُ ويرغب في زواله في وقت واحد . قد لا يكون في هذا القول تناقض فكري ولكني ارى فيه تناقضاً عجيباً في العواطف . واخاف اذا رسخت هذه الاقوال في عقول الطلبة ان يأخذ بعضهم بهذا التعليم فيقول في نفسه « انا احب بلادي ولكني لما كنت احب الانسانية ايضاً فسأبقى هادئاً هدوا ينطبق على حالتي الصحية »

ان الوطنية الموقتة تؤدي بصاحبها الى هذه النتيجة .

يجب ان ننظر في هذه الحالة الى اقوال كورنيل ونعمل برأيه

كان يقول كورنيل لا اعتقد ان الفرض صعب ولكن اعتقد ان الصعوبة هي فرض . ليس هذا المبدأ صحيحاً بحد ذاته ولكن المرء اذا وقع في اشكال يحار في اي مكان يكون واجبه . فالوطن قبل الانسانية . يجب علينا ان نطلب دائماً ان يحسن وطننا الى الانسانية بعلمه وفنونه واختراعاته وان لا ينظر الى زواله واضمحلاله بهدو وسكون

ان الوطنية التي يشترط فيها تنحصر في ما يأتي : احب وطني حسب الاحوال التي تقضي علي بحبه . احب وطني مثلا لانني جمهوري ولانه يرجع اليه الفضل في اعلان المساواة بين الناس وسيادة الامة . او احب وطني لانه كان مثال الاخلاص للعائلة المالكة مدة عصور طويلة . او احب وطني لانه كان ابن الكنيسة البكر

يظهر لاول وهلة ان حب هذا الوطن ليس فيه شيء مشروط . وان ما ورد ذكره هو شيء معقول . فهو مشروط لانه قد وضعت شروط لحبه . فالذي يقول انني احب بلادي لانه توجد فيها الصفة الفلانية كأنه يقول لو لم تكن هذه الصفة في بلادي لما كنت احبها وكانه يقول متى زالت هذه الصفة منها لا احبها

ان الرجل الجمهوري الذي يقول في نفسه « احب فرنسا لانها اعلنت مبادىء سنة ١٧٨٩ » لا يعرف انه يضع نفسه موضع الرجل الملكي الذي يقول « احب فرنسا لانها ملكية » وموضع الرجل المتدين الذي يقول «احب فرنسا لانها ابنة الكنيسة البكر ». فهؤلاء الرجال الثلاثة ليسوا فرنسويين وان ظنوا انفسهم كذلك . فوطن الاول مبادىء سنة ١٧٨٩ . ووطن الثاني الملكية ، ووطن الثالث الكاثوليكية . فهم يحبون فرنسا ما بقيت على معتقداتهم

نعم ؛ اذا كان ليس في وطنك شيء يدعوك الى حبه لماذا تحبه ؟ هذا قول معقول . ولكن لا يجب ان تحلل كثيراً الاسباب التي تدعوك الى حب وطنك لانك تنتهي بان تفضل حب الاسباب على حب وطنك . فمثل هذا الرجل مثل العاشق الذي وصفه شامفور في قوله : قالت له عشيقته ذات يوم . أتعرف لماذا احبك ؟ احبك لكذا ... فقال لها « ارجوك ان تقفي عند هذا القدر لانك اذا كنت لا تحبينني لذاتي ولا احبك لذاتك بل لصفة

في اخاف ان يأتي يوم تنكرين علي هذه الصفة . فاخاف انقطاع حبي واقلق على تركك اياه »

— يقول بعضهم — ايجب على المرء ان يحب وطنه حباً اعمى ؟

نعم يجب ان يحبه كما يحب امه واباه . وان لا ينظر الى الاسباب التي تدعوه الى حبه ويدقق فيها

لاجل هذا قلت واقول ان حب الوطن الصغير هو اساس الوطنية . لان الوطن الصغير هو الوطن الذي يحبه المرء مدفوعا بعاطفته . فلا يجب ان يكون جميلا جدا ليحب المرء جماله . ولا ان يكون محبوبا جداً ليحبه الانسان

﴿ الوطنية والحرية ﴾

(١٥)

من الامور المسلم بها انه يحسن بل يجب على الوطن الكبير ان لا يحمل المرء باغلاطه وسيئاته واستبداده على ان يحب وطنه على الرغم منه . يجب عليه ان لا يضطرنا لان نحبه مجانا . لهذا السبب تمتزج الوطنية بالحرية عند رجال هذا العصر

كانت الوطنية عند القدماء اخلاص المرء بكلية وبكل معنى الاخلاص للحكومة . وسبب ذلك ان فكرة الذاتية كانت معدومة او حديثة الظهور فلم يكن من فرق بين شخص واخر . وكانت المدينة عبارة عن قفير نحل . وكانت حياة الافراد هي حياة هذا القفير

ولما كانت الامة تتألف اليوم من كاثوليك وبروتستانت ومسلمين ويهود وروحيين وماديين وجمهوريين وملكيين واشتراكيين لا اعلم كيف تستطيع الحكومة ان تفرض على كل هؤلاء الافراد روحاً واحدة يجب عليها ان تخلقها لهم من العدم ؟ فالروح العامة والوحدة الادبية مفقودة اليوم في الامم الحاضرة .

— يقولون اذن لا يوجد وطن ؟

= نعم ولكن يوجد دائما شيء عام تجتمع عليه الكلمة . يوجد شيء تتوحد فيه الاميال . وهو اعتبار كل هذه العواطف اعتباراً متبادلا . فوحدة الامة الادبية اليوم تقوم في ان يعتبر كل فرد اميال الاخرين واديانهم . لا يحب الجمهوري وطنه لانه ملكي ولكنه يحبه على قدر ما يساعده على ان

يكون جمهوريا وعلى نشر افكاره الجمهورية . ولا يحب البروتستاني وطنه لانه كاثوليكي ولكنه يحبه على قدر ما يساوي بينه وبين الكاثوليكي ان الحرية التي تهبها الحكومة هؤلاء الافراد المختلفي المذاهب هي نفسها توحد بينهم

فالوطنية اليوم هي حب وطن حر وحكومة حرة

فالذي يحب وطنه يجب ان يكون بطبيعته حراً وذلك كي لا يحمل مواطنين مثله على القول « اذن يمكني ان اجد حريتي في غير هذا المكان »

فالوطني العصري هو الرجل الحر والوطنية العصرية هي الحرية

لذلك تجتمع هاتان الكلمتان فتؤلفان معنى واحداً لا يتجزأ . وهو حب انفسنا . وحب احترام فكرنا ودينتا ووطننا ؛ذلك اذا شئنا ان نكون اعزاء على انفسنا وعلى الوطن الذي نحبهُ

American University of Beirut

172.1
F17hAA

General Library

1721
F17hnA
C.1